

أَضْوَاءُ جَدِيدَةٍ عَلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ دَاوُدَ وَتَحْرِيرِ بَيْتِ الْقُدْسِ

د. يوسف درويش غزوانه

جامعة اليرموك

هو داود بن عيسى بن محمد بن ايوب الملك الناصر الولي المهاجر صلاح الدين ابو الفاخر ابن المعظم عيسى (١) . ولد بدمشق في ١٧ جمادى الاولى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) (٢) ، وامه ام ولد تركية الاصل ، عاشت فترة في مدينة الكرك (٣) ، وعرفت بشدة البأس ورباطة الجأش ، فاحبها اهل الكرك ، وتمكنت بمساعدتهم سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) من مقاتلة قوات الكامل محمد التي ارسلها لمحاصرة الكرك ، وانتزاعها من الناصر داود ، فابقت المدينة لولدها (٤) .

نشا الناصر داود في حياة أبيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، ملازما للاشتغال بالعلوم على اختلافها ، وشارك في كثير منها (وحصل منها طرفا جيدا) (٥) . وعاش حياة العلماء واحبهم (٦) ، وارتحل الى العراق في طلب العلم ، فسمع في بغداد من جماعة من العلماء نذكر منهم : محمد بن احمد القطيعي وغيره . وسمع بالكرك من ابن اللتي ، وشمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي ، وسيف الدين علي الامدي (٧) ، واجازه ابو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي وغيره من العلماء (٨) . ويذكر ابن شاكر الكتبي بانه (كان حنفي المذهب عالما فاضلا مناضرا ، ذكيا له اليد البيضاء في الشعر والادب) (٩) .

وكان لنشأة الناصر داود اثر كبير في حبه للعلم وتعلقه بالعلماء ، فوالده المعظم عيسى كان عالما فاضلا متفنا في الفقه والنحو وغيره ، قرب العلماء واکرمهم ، ولازمه العديد منهم فكانوا (لا يفارقونه في سفر ولا حضر) (١٠) . وكان يجلس الى جماعة الفقهاء ويباحثهم في مسائل لغوية وفقهية ، ويجزل لهم العطاء (١١) . وكان ايضا يحث ابنه الناصر داود على طلب العلم واقتناء الكتب النفيسة ، بل

كان حريصا على اهدائه بعضها (١٢) ، فالبيونيني يذكر ان الناصر داود كان يحب اقتناء الكتب النفيسة فيقول : (حصل منها جملة كثيرة ذهبت بعد وفاته) (١٣) .

وقد اصطحب المعظم عيسى ابنه الناصر داود في العديد من اسفاره وحروبه ضد الفرنج ، كما ارسله في مهمات رسمية (سفارات) الى بعض الملوك والامراء (١٤) ، فصارت لديه دراية بامور الدولة ، وازدادت حنكته وتجربته السياسية .

الانقسام في صفوف البيت الايوبي :

شب النزاع بين المعظم عيسى صاحب دمشق واخيه الكامل محمد سلطان مصر ، وادى هذا التصدع الى اضعاف الجبهة الاسلامية ، فانكح قواها وزادها تمزيقا ، وكان سببا في ضياع بيت المقدس ، فقد حاول المعظم عيسى صاحب دمشق التوسع شمالا على حساب امارة حماة ، فاحتل معرة النعمان وسلمية (١٥) ، ثم حاصر حماة نفسها . فلما وصلت انباء ذلك الى اخويه الكامل محمد صاحب مصر ، والاشرف موسى صاحب سنجار واخلاق (١٦) ، والبلاد الشرقية ، خشيا من ازدياد نفوذه ، فابن واصل يقول على لسانهما ، ان اخذ المعظم عيسى حماة (تعدى الى غيرها واطمعت نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها) (١٧) . لذا هدداه وارغماه على العودة الى دمشق ، وفي نفس الوقت عقدا اتفاقا مفاده انتزاع دمشق من المعظم عيسى . الا ان المعظم تمكن من كسب اخيه الاشرف الى جانبه ، بعد ان تحالف مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب مملكة عراق العجم واذربيجان، ومظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب اربل (١٨) . واصبحوا يشكلون خطرا على املاكه ، فاضطر الى مسالة اخيه المعظم وانضم الى جانبه ، واتى الى دمشق معلنا ذلك (١٩) .

الا ان الكامل محمد كانت له اطماعه في بلاد الشام ، فقد عمل حثيثا على انتزاع دمشق من اخيه المعظم ، وبسط نفوذه على بلاد الشام جميعها (٢٠) . ازاء ذلك خشي مغبة هذا التحالف ، بالاضافة الى انه اخذ يشك في اخلاص جنوده الى درجة اتهامهم بممالة اخيه المعظم (٢١) . فيحث عن حليف يستطيع الوقوف الى جانبه ، ولم يجد غير الاجنبي فارسل سفارة الى الامبراطور فردريك الثاني The Emperor Frederik II. في صقلية على رأسها الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ مستنجدا به ، واعدا اعطائه بيت المقدس ، وما بيد المسلمين من الساحل ، ان قدم بقواته لمساعدته (٢٢) فلقيت هذه الدعوة استحسان الامبراطور واعاد سفارة الكامل بسفارة أخرى محملة بالهدايا

النفيسة (٢٣) ، ووعده بالحضور الى فلسطين ، ثم أخذ في الاستعداد لاعداد حملة صليبية جديدة الى الديار المقدسة .

تسليم بيت المقدس للصليبيين :

في خضم هذه الاحداث ، توفي الملك المعظم عيسى في ذى القعدة سنة ٦٢٤ هـ (تشرين ثاني ١٢٢٧ م) ، وتولى مملكة دمشق ابنه الملك الناصر داود ولم يتجاوز العشرين عاما . وهكذا اصبحت الساحة خالية للكمال محمد ، فعمل بسرعة على تحقيق اطماعه في بلاد الشام وضمها الى سلطانه . فافتعل خلافا مع الناصر داود ، اذ طلب منه قلعة الشويك (٢٤) ليجعلها خزائنه له ، فامتنع الناصر داود (وأدى ذلك الى تصميم عزم الملك الكامل على الخروج الى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه) (٢٥) . ولكي يهيء الجو لقدم الصليبيين الى فلسطين ، خرج الكامل بقواته من مصر في رمضان ٦٢٥ هـ (آب ١٢٢٨ م) ، فاستولى على نابلس وبيت المقدس والخليل من الناصر داود (٢٦) ، ثم اقام في تل العجول قرب غزة منتظرا وصول الامبراطور فردريك الثاني الذي كان في طريقه الى فلسطين .

وصل الامبراطور الى فلسطين ، وحطت قواته في عكا في شهر شوال ٦٢٥ هـ (ايلول ١٢٢٨ م) ، وبدأت الاتصالات بين الطرفين ، ويجدر بنا التساؤل عن موقف الكامل محمد ، ووقوفه هذا الموقف المثير . فالمؤرخون يذكرون ان الظروف كانت الى جانب الكامل محمد ولمصلحته ، فموت أخيه المعظم عيسى قد انتهى حاجته الى حليف خارجي . فابن واصل يقول : (وانما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الامبراطور واستدعائه لاشغال سر الملك المعظم وثلاثا يتمكن الملك المعظم بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب اربل من قصده وقصد الملك الاشرف) (٢٧) . وذكر بعض المؤرخين المحدثين ان الحملة الصليبية السادسة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطرا على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة (٢٨) ، ومع ذلك جبن الكامل محمد من الوقوف امامها ، مدعياً انه اراد الايفاء بوعدده لما عرف عنه من تسامح ديني . ولكن هل بلغ التسامح الديني لدى الكامل حدا جملة يفرض بأقدس مقدسات المسلمين ؟ وهل التسامح الديني يجعلنا نفرط بأوطاننا ونسلمها للصليبي المستعمر ؟

كانت فكرة القيام بحملة صليبية الى بلاد الشام واردة لدى الامبراطور فردريك الثاني بسبب ضغط البابوية عليه . ولا شك ان الكامل كان على علم بالاستعداد للحملة ، فوجدها فرصة مواتية كي يرسل للامبراطور للاتفاق معه على الاسراع والقدم الى فلسطين ، كي يحول دون نجاح المعظم عيسى وحلفائه من مهاجمته وانتزاع مصر منه . وهذا ما اكده ابن واصل (٢٩) . ثم ان المصادر

اللاتينية للحملة اكدت وجهة النظر التي ذهبنا اليها . فالامبراطور فردريك كان يستعد للقيام بهذه الحملة في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، أي قبل وصوله الى فلسطين بعام واحد ، ولكنه تأخر بسبب اصابته بمرض شديد (٣٠) . كذلك اراد الامبراطور ان يمهد لحملة هذه ، فأرسل بدوره الى المعظم عيسى صاحب دمشق للاتفاق معه مقابل التنازل عن بيت المقدس الذي كان ضمن أملاكه . فرد المعظم على رسوله قائلا : (قل لصاحبك ما انا مثل الغير ، ما له عندي سوى السيف) (٣١) . ثم بادر فأعد قواته وارسلها الى نابلس للوقوف في وجه الصليبيين وحماية بيت المقدس . فالخطة كانت مدبرة ومتفق عليها بين الكامل محمد وفردريك ، بموجبها يسلم الكامل بيت المقدس ومعظم الفتوح الصلاحية للصليبيين .

وكان بإمكان الكامل النكوث بوعده خصوصا وان الامر يتعلق ببيت المقدس ، المدينة الاثيرة لدى المسلمين جميعا ، ولن يكلفه ذلك كثير جهد ، اذا اخذنا بعين الاعتبار اقوال بعض الباحثين بان الحملة الصليبية السادسة كانت غير ذي بال، وانها اضعف واغرب حملة صليبية وصلت الى بلاد الشام. ان الدلائل تنفي ذلك، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان جموعا فرنجية كثيرة وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور ، ومكثوا هناك بانتظار وصوله (٣٢) . واكدت ذلك المصادر اللاتينية فالمؤرخ Roger of Wendover ذكر في تاريخه ان جموعا صليبية وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور فردريك في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، ولما ايقنوا انه غير قادم عاد ٤٠٠٠ منهم الى أوروبا ، وبقي آخرون بانتظاره (٣٣) اما عن الحملة نفسها ، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان الامبراطور قدم (الى عكا في جموع كثيرة من الالمانية وغيرها من الفرنج) (٣٤) . اما المصادر اللاتينية فذكر المؤرخ : Philip of Novara ان الاسطول الذي حط في ميناء عكا رفقة الامبراطور كان مؤلفا من سبعين قطعة بحرية (٣٥) .

وهكذا فاننا نرى ان الحملة الصليبية السادسة كانت على درجة من القوة والاستعداد ، ويؤكد ذلك ، ما فعله الامبراطور فردريك الثاني . فبعد قدومه الى فلسطين استولى على بعض المناطق في الساحل ، كصيدا ويافا وقيسارية ، وراح يزيد في تحصيناتها (٣٦) . ثم ان الجيش الذي تحرك نحو قيسارية كان مؤلفا من ٨٠٠ فارس و ١٠٠٠ مشاة (٣٧) . ومع ذلك فان قوات الكامل آنذاك كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به التصدي للصليبيين والايقاع بهم . الا ان الكامل خرج بقواته الى فلسطين لا للوقوف في وجه الصليبيين بل لانتزاع بيت المقدس من ابن أخيه الناصر داود ، لتسهيل مهمة تسليمها للصليبيين ، كما نصت على ذلك المعاهدة المعقودة بين الطرفين ثم اقام في غزة بانتظار وصول

الامبراطور الى فلسطين . وهذا الموقف يذكرنا بموقف الافضل شاهنشاه من جموع الحملة الصليبية الاولى للاراضي المقدسة ، فقد خرج من مصر بقواته وانتزع بيت المقدس من الاميرين سكران وبلغازي بعد سقوط انطاكية بشهر واحد (٢٨) . فكلاهما تعاهد مع الصليبيين وفرط ببيت المقدس . فالافضل خرج من مصر وانتزع القدس من الاراتقة، بينما كان الصليبيون متوجهين اليه، والكامل خرج من مصر وانتزع القدس من الناصر داود صاحب دمشق ، بينما كان فردريك الثاني في طريقه للاراضي المقدسة . ومصر في الحملتين الاولى والسادسة كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به دفع المعتدين والتصدي لهم والانتصار عليهم .

ولما شعر الكامل محمد ان حصار دمشق قد طال بقيادة اخيه الاشرف موسى - وكانا قد اتفقا على انتزاع املاك ابن اخيهما الناصر داود واقتسامها فيما بينهما - وان مشاعر الكراهية ضده قد ازدادت، حتى من داخل قواته (٢٩) . فقد عارضه امراء جيشه ومنهم الامير سيف الدين بن زكري الذي اشار عليه ضرورة الاتحاد مع اخيه الاشرف وابن اخيه الناصر داود ، فيجتمع ثلاثتهم ويقاتلوا العدو (فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان انه اعطى الفرنج القدس) (٤٠) . وخشي الكامل ان يؤدي ذلك الى ثورة عارمة ضده تطيح بملكه ، فأسرع الى انهاء المفاوضات ، وعقد معاهدة مع الصليبيين في ٢٨ ربيع الاول ٦٢٦ هـ (٢٥ شباط ١٢٢٩ م) ، سلم بموجبها بيت المقدس اليهم (٤١) . بالاضافة الى الناصرة وبيت لحم واللد والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا (٤٢) . فالكامل محمد اتفق مع الصليبيين على القدوم الى الاراضي المقدسة ، وكانت له اطماعه في الاستيلاء على بلاد الشام واضعاف خصومه فيها ، فاستعان بالصليبيين من أجل ذلك . ويؤكد ابن واصل ذلك حيث يقول : (ورأى الملك الكامل انه ان شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه) (٤٣) . واما المؤرخ اللاتيني: Roger of Wendover فيذكر ان الحروب الداخلية انهكت الملك الكامل فآثر عقد المعاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات بدون اراقة دماء (٤٤) .

ولم يغفر المؤرخون المعاصرون له هذه الزلة ، فنعتوه بالخيانة والتقصير واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين ، وحزن المسلمون لخروج القدس من ايديهم ، وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل (٤٥) . وقامت المآثم في جميع بلاد المسلمين واستعظموا ذلك واكبروه واستشنعوه منه (٤٦) . وجلس سبط ابن الجوزي في الجامع الاموي يذكر للمسلمين ما جرى على البيت المقدس ، وذكر ما في تسليمه من الصغار للمسلمين والعار ، وعلق هو نفسه على هذه الحادثة في تاريخه فقال : (يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة) (٤٧) . ووصف،

ابن واصل الناس في الجامع الاموي قائلا : (وكان يوما مشهودا وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم) (٤٨) .

اما تعليق الكامل على هذه الضجة التي اجتاحت العالم الاسلامي فقوله : (انا لم نسمح لهم الا بكنائس وادر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين) (٤٩) . وذكر ابن واصل ان الكامل اذا قضى غرضه واستتب الامور له ، سيبادر الى تطهير البيت المقدس من الفرنج واخراجهم منه (٥٠) . ولكن تقديرات الكامل كانت خاطئة ، فقد توفي ولم يتمكن من استرداده ، او حتى مجرد التفكير في تحريره من الصليبيين ، وكانت وصمة عار في تاريخه .

استيلاء الكامل محمد على دمشق :

ارسل الكامل اخاه الاشرف لحصار دمشق ، وبقي هو في فلسطين (لتتميم امر الصلح مع الفرنج وليخلو سره من جهتهم) (٥١) . وبعد توقيع المعاهدة توجه الى دمشق ، وشددت قواته الحصار على الناصر داود الذي اضطر الى الاتفاق مع عميه وقررا له : (الكرك والشوبك واعمالهما ، والصلت والبلقاء والاغوار جميعها ، ونابلس واعمال القدس وبيت جبريل) (٥٢) . ثم دخلت قواتهما دمشق بين مشاعر السخط من اهلها ، ويصور ابن واصل مشاعر الدماشقة قائلا : (وما رايت يومئذ احدا من الدمشقيين الا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد او اب) (٥٣) . ثم غادر الناصر داود دمشق ، وتسلم البلاد التي عينت له مكونا : امارة الكرك الايوبية ، وذلك في شعبان ٦٢٦ هـ (تموز ١٢٢٩ م) .

وقد لعبت هذه الامارة دورا له اهميته في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وتحملت عبئا كبيرا في مقارعة الوجود الصليبي في فلسطين ، واتسعت رقعتها فشملت كل منطقة شرقي الاردن ، ومعظم الاراضي الفلسطينية (٥٤) . ثم كان لها دورها في مرحلة الصراع الذي نشب من جديد بين الملوك الايوبيين ، فأصبحت اذ ذلك تمثل مركزا لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق . ويعبر اليونيني عن ذلك على لسان احد الامراء موجهها كلامه للكامل : (انت وأخوك - أي الاشرف موسى - مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه ، وقد بقي بينكما الملك الناصر داود ، فالى أي جهة مال ترجحت) (٥٥) .

الناصر داود يحرر بيت المقدس :

نصت معاهدة الصلح التي عقدها الكامل محمد مع فردريك الثاني على تسليمه القدس شريطة أن لا تجدد اسواره . اما القرى الواقعة في منطقة القدس فتبقى بأيدي المسلمين ، ويعين وال عليها يكون مقامه في قرية البيرة شمالي القدس (٥٦) . وبقي بيت المقدس بيد الفرنج طيلة حياة الكامل محمد ، ولم يفكر في استرداده منهم كما وعد ، علما بأنه كان يستطيع ذلك بما لديه من قوات . اضاف الى ذلك انه جمع حوله معظم الملوك الايوبيين في الشام ، وحاول التوسع شرقا على حساب السلطان علاء الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم ، وانتزاع ما بيده من بلاد (٥٧) . ولكنه لم يحاول بهذه القوات تحرير بيت المقدس من الفرنج .

وفي رجب ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) توفي الكامل محمد وبيت المقدس بيد الفرنج . وبعد وفاته عاد التمزق والانشقاق الى صفوف البيت الايوبي ، فاهتبل الفرنج هذه الفرصة واخذوا يعززون وجودهم في المدينة المقدسة وفلسطين ، فأعادوا بناء بعض اسوار القدس ، ثم عمروا في غربيه (قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من ابراجها) (٥٨) وشحنوا هذه القلعة بالاجناد والعتاد (٥٩) . وصاروا يضيقون على المسلمين ، ويحاولون السيطرة على اجزاء أخرى من فلسطين ، فقاموا بزعامة ثيوبالد الكمباني : Théopald of Champagne بتحسين عسقلان وغيرها اثر وصول جموع صليبية الى فلسطين (٦٠) ، واستولوا أيضا على قافلة تجارية اسلامية قرب نهر الاردن كانت في طريقها الى دمشق(٦١) . عندئذ رأى الملك الناصر داود صاحب الكرك وجوب استنقاذ القدس من الصليبيين ، فالمنهاجي السيوطي ذكر ان الناصر داود كان يعمل منذ قدومه الى الكرك (على استنقاذ بيت المقدس من ايدي الفرنج وتطهيره من أرجاسهم وادناسهم) (٦٢) . وهكذا قر عزمه على تحرير القدس خصوصا وان عمه الكامل الذي كان يؤيد بقاء القدس بيد الصليبيين قد توفي (٦٣) .

فحشد الناصر داود قواته ، وسار من الكرك باتجاه القدس (٦٤) ، وكان الصليبيون لايتوقعون هذا الهجوم ، سيما وان الخلاف والانقسام بين الايوبيين كان على أشده ، أما هم فكانوا في شغل شاغل بسبب احتفالهم (بيوم عيدهم الاكبر) (٦٥) . فحاصر الناصر داود بيت المقدس ، وقسم قواته الى فرق وضع كل فرقة في مكان اعده لها ، ثم نازل القلعة ونصب عليها المجانيق (٦٦) . وقبيل فجر ذلك العيد هجمت قواته على القدس فدهش الفرنج (وחרابوا حين سمعوا

التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف (١٧) . واجتاحت قوات الناصر القدس وذلك في جمادى الاولى ٦٣٧ هـ (كانون اول ١٢٣٩ م) ، وطهره من الفرنج (١٨) . أما القلعة فبقيت محاصرة مدة سبعة وعشرين يوما وأخيرا (سلمت اليه بالامان ، ولما سلمت اليه هدمها ، وهدم برج داود عليه السلام) (١٩) ، وسواها بالارض . ثم سمح الناصر داود للفرنج بمغادرة القدس (٧٠) ، وهذا التصرف يذكرنا بما فعله صلاح الدين الايوبي مع الفرنج عند تحريره للقدس في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

ثم كتب الناصر من انشائه الى الخليفة العباسي المستنصر بالله يبشره بهذا الفتح المبين (٧١) ، كما أمر بكتابة البشائر الى سائر الممالك الاسلامية يخبرهم بفتح بيت المقدس وتحريره من الفرنج (٧٢) واتفق عند هذا الفتح وصول محي الدين ابن الجوزي رسول الخليفة العباسي للتوفيق بين الملوك الايوبيين (٧٣) وصحبته الشاعر جمال الدين بن مطروح ، فقال ابن مطروح بهذه المناسبة قصيدة يمدح فيها الناصر داود ويمثله بالناصر صلاح الدين الايوبي ، نقتطف منها الايات التالية :

المسجد الاقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا بالكفر مستوطننا ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره اولا وناصر طهره آخره (٧٤)

اما المنهاجي السيوطي فقال : (ثم رجع الناصر بعد تمام هذا الفتح المبين الى الكرك ، وقد سطرت هذه المثوبة في صفحات حسناته ، وتواردت الالسن بالثناء له وشكر مساعيه المثوبة المحمودة) (٧٥) .

مناقشة وخاتمة :

يوجد في تاريخنا الكثير من السليبات ، وعلينا ان لانركز في كتاباتنا على الوجه المشرق فقط ، فلدينا الجانب المظلم من هذا التاريخ . وباعتقادي أن دراسة تلك الجوانب المظلمة واجب قومي على باحثينا تقع مسؤولية تحمل عبئه ، لناخذ من تلك الاحداث العظة والعبرة .

فبيت المقدس اصبح سلعة في فترة الصراع المرير بين الملوك الايوبيين في مصر والشام ، فكانوا لا يجدون حرجا في عرضه على الصليبيين بين الفينة

والاخرى . فالكامل محمد صاحب مصر عرض تسليم القدس الى الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، مقابل جلائهم عن الاراضي المصرية ، ثم استدعاهم الى فلسطين وسلمهم بيت المقدس في الحملة الصليبية السادسة . اما الصالح اسماعيل صاحب دمشق فقد عقد صفقة مع الصليبيين بموجبها سلمهم القدس ، مقابل مساعدتهم له عسكريا في حربه ضد الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر ، بل زاد على ذلك فمنحهم طبرية وعسقلان وكوكب الهواء (٧٦) . وكان رسوله في اتمام الصفقة الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص الذي ذهب بنفسه (الى عكا واجتمع بالفرنج وقرر معهم ان يمضوا معه لحرب الملك الصالح فاجابوه الى ذلك) (٧٧) .

وقد سلطنا الاضواء في هذا البحث على الملك الناصر داود ودوره في مقارعة الصليبيين وتحريره لبيت المقدس سنة ٦٣٧ هـ . فالمراجع الحديثة صممت عن دوره في تحرير البيت المقدس ، ولكنها ركزت على تحريره من قبل الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ بعد استدعائهم للشام من قبل الصالح نجم الدين ايوب . وتؤكد هنا ان الفرنج لم يكونوا في القدس حال دون الخوارزمية اليه ، فابن واصل ذكر ان الناس جفلوا بين ايديهم حال تقدمهم الى بلاد الشام ، حتى ان قوات الصالح اسماعيل عادت من غزة الى دمشق . اما عن فرنج القدس فقال : (وهربت الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه) (٧٨) . فقوات الفرنج خرجت من القدس حال سماعهم بمقدم الخوارزمية . اما نقمة الخوارزمية فوقعت على نصارى القدس دونما تمييز ، ويؤكد ابن واصل مذهبنا اليه فيقول : (وهجمت الخوارزمية القدس ، وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ، ولم يبقوا على احد منهم ، وسبوا ذرارهم ونساءهم ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة) (٧٩) فنقمة الخوارزمية لم توجه ضد القوات الفرنجية ، بل الى اهالي بيت المقدس من النصارى ، لان الفرنج غادروا القدس حال سماعهم اجتياح الخوارزمية لبلاد الشام .

ولذا فاننا نرى ان القدس لم يحرره الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ كما هو متعارف عليه في مراجعنا الحديثة ، فالتحرير يكون بقوة السيف ومواجهة قوات عسكرية وقتال مرير كما حدث سنة ٥٨٣ هـ عندما حرره صلاح الدين الايوبي ، وسنة ٦٣٧ هـ عندما حرره الناصر داود بن المعظم عيسى . وكل ما فعله الخوارزمية هو اجتياح المدينة المقدسة والانتقام من سكانها النصارى ، تماما كما فعلوا بالمسلمين في بقية بلاد الشام ، عند اجتياحهم لها . وهذا ما اكده ابن واصل حيث قال : (فاجفل الناس بين ايديهم وما مروا بموضع الا ونهبوه وعاثوا

به) (٨٠) . اما عن المدة التي مكثها الفرنج في بيت المقدس بعد ان سلمها لهم الصالح اسماعيل ، فكانت شهورا قليلة ، فقد غادروها قبل وصول الخوارزمية للقدس .

وعلى ذلك فالملك الناصر داود صاحب الكرك هو الذي حرر بيت المقدس بعد ان سلمه الكامل محمد صاحب مصر للصليبيين ، وبقي القدس بيد المسلمين قرونا عديدة ، اللهم الا تلك الشهور القليلة التي اشرنا اليها في بحثنا هذا .

(١) ابن شاکر الکتبی ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٣ م ، ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٢

ابن واصل ، مفرج الکروب ، تحقيق حسنین ربیع وسعيد عاشور دار الکتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ج ٥ ص ١١٢

ويذكر اليوناني انه لقب بأبي المظفر ايضا (الدليل على مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٢٦) .
(٢) ابن شاکر الکتبی ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن خلکان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج ٣ ص ٤٩٦

(٣) الکرك : بفتح الکاف والراء وکاف اخرى ، اسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراء ، وهي على سن جبل عال تحيط بها اودية سحيقة الا من جهة الریض (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ق ١ ص ٣٦٢) .
وعن اصل الكلمة ومشتقاته انظر للباحث : امارة الکرك الايوبية ، عمان ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥٨ وللباحث امارة الکرك الايوبية ، ص ٢٢٤
(٥) اليوناني ، الدليل على مرآة الزمان ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥٤ - ١٩٦١ ، ج ١ ص ١٢٧

(٦) اليوناني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٨
(٧) اليوناني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢٧ - ١٤٨ ، ابن شاکر الکتبی ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٥ - ٤٠ ، وللباحث امارک الکرك الايوبية ص ٢٣١

(٨) اليوناني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ١٢٧ ، ابن شاکر الکتبی ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤١٩
(٩) ابن شاکر الکتبی ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤١٩ ، ومن المعروف ان الايوبيين كانوا على المذهب الشافعي ماعدا المظم عيسى وابنه الناصر داود ، فقد كانا على المذهب الحنفي (ابن واصل ، مفرج الکروب ، ج ٤ ص ٢١١) .

(١٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢١٤
(١١) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ ، ج ٥ ص ٢٨
(١٢) ابن شاکر الکتبی ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٦ ، ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ١١٩

..... اعضاء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس

(١٣) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٥

(١٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٤٢

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ، ج ٦ ص ٢٥٧

(١٥) معرة النعمان : سميت كذلك نسبة الى النعمان بن بشير الصحابي ، وهي مدينة كبيرة تقع بين حلب وحماه ، وتشتهر بالزيتون والتين والفسق (لي سترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ، عمان ، ١٩٧٠ م ، ص ٤٧٧) .

سلمية : هو حصن كالمدينة تقع على طرف البادية ومن سلمية الى حمص اربعة وعشرون ميلا (الادريسي ، القسم الخاص بفلسطين وسورية من نزهة المشتاق ، بون ، المانيا ، ص ٢٦) .
(١٦) سنجار : قرية تقع في اقليم جبل سمان الى الغرب من حلب (لي سترانج ص ٤٠٣) .
اخلط : او خلط ، بلدة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وهي قسبة ارمينية الوسطى ولها بحيرة جميلة (ياقوت ، ج ٢ ، ص ٢٨٠) .

(١٧) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٧

(١٨) اربل : مدينة كبيرة تقع بين الزابيين وتبعد عن الموصل مسافة يومين ولها قلعة حصينة (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦) .

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن هذا التحالف انظر كتابي ، امارة الكرك الايوبية ص ٢١١ - ٢١٢

(٢٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مخطوط مصدر طبع شكافو ، ج ٨ ، ص ٤١٧ ، الذهبي : دول الاسلام تحقيق فهم شلتون ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ج ٢ ، ص ١٣٢

وللباحث ، امارة الكرك الايوبية ، ص ٢١٠

(٢١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٧

(٢٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٠٦

الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢

Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. Vol. 2, p. 528.

Michaud's, History of the Crusades, translated by : W.

Robson, London, 1852, Vol. 2, P. 273.

Ibid, P. 273.

(٢٣)

(٢٤) الشوبك : قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وآيلة قرب الكرك . (البغدادي ،

مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ١٣٢) .

(٢٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٥

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٠

ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٢٧

(٢٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٢٤

(٢٨) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، دار النهضة ، بيروت ،

١٩٧٢ م ، ص ٨٦

Runciman, A History of the Crusades, Vol. 3, PP. 183-184.

(٢٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٢٤
Roger of Wendover, The Crusade of Frederick II, From
Christian Society and the Crusades, Sources of
Medieval history, Edited by Edward Peters, Penn-
sylvania, 1971, P. 148.
Runciman, op. Cit. Vol. 3, P. 178.

(٣٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٢٤
Recueil des Historiens des Croisades H. Orientaux, vol. 4,
P. 185.

(٣١) سبط ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٧
(٣٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٤
الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٣٢
Roger of Wendover, op. Cit. P. 148. (٣٣)

(٣٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٣
Philip of Novara, The Crusade of Frederick II, Source of (٣٥)
Medieval history. From Christian Society and the
Crusades, Edited by Edward Peters, Pennsylvania,
1971, P. 157.

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٧٧
ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٥
Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ.
Vol. 2, P. 372.

Roger of Wendover, op. op. cit., p. 151. (٣٧)

(٣٨) ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ج ٢ ص ١٠٤
وللباحث بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى ، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث
لبلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠ م .
Michaud's, op cit. vol. 2, P. 278. (٣٩)

(٤٠) ابن شداد ، الاطلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٢٢٤
(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٤٢
Roger of Wendover, op. cit. P. 152.

(٤٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٢
اليونيني : الدليل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٢٩
Philip of Novara, op. cit. P. 158.
Michaud's, op. cit. P. 278.

.....اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس

- (٤٣) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٢
Roger of Wendover, op. cit. P. 152. (٤٤)
- (٤٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣
(٤٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢
ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣
(٤٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٣٢
(٤٨) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٦
(٤٩) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٣
(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣
(٥١) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤١
(٥٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٦
(٥٣) المصدر نفسه ص ٢٥٧
(٥٤) ابن واصل ، المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٥ - ١٩٢
اليونيني : الدليل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٢٨
(٥٥) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٣٨
(٥٦) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤١
(٥٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٧٤
(٥٨) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٦ . وانظر : اليونيني ، الدليل على مرآة الزمان
ج ١ ص ١٤١
(٥٩) المنهجي السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ، مخطوط بجامعة
برنستون ، اميركا رقم ٥٨٥٠ لوحة ٧٨ ب .
(٦٠) هاملتون جب ، صلاح الدين الايوبي ، ترجمة يوسف ابيش ، بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٢٢٢
(٦١) وانسمان ، ج ٣ ص ٣٧٣
(٦٢) المنهجي السيوطي ، المصدر السابق لوحة ٧٨ ب .
(٦٣) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٣
(٦٤) ابن شاعر الكتبي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٣
(٦٥) المنهجي السيوطي : المصدر نفسه لوحة ١٧٩ .
(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٤٧
(٦٧) المنهجي السيوطي : المصدر نفسه : لوحة ٧٩ ب .
(٦٨) هاملتون جب : المصدر السابق ، ص ٢٢٣
(٦٩) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٧ وانظر :
Michaud's, op.cit. voll. 2, P. 293.
Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, New York,
1972, P. 48.

- (٧٠) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٧
(٧١) راجع نص هذه الرسالة في ملاحق كتابي (املرة كرك الايوبية) ص ٣٦١
(٧٢) المنهاجي السيوطي : المصدر السابق ، لوحة ٧٩ ب .
(٧٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٨
(٧٤) ابن واصل : نفس المصدر ، ص ٢٤٧
اليونيني : الدليل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٤٢
ابن شاکر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٤
(٧٥) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه ، لوحة ٧٩ ب .
(٧٦) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٢
(٧٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٣
(٧٨) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٣٧
(٧٩) ابن واصل : المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٧
(٨٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٦

* * *